سرقويتي بيكي ودورها في البلاط المغولي

نرجس أسعد كدرو(*)

تمتعت المرأة في عهد المغول بمكانة كبيرة ؛ فكانت الملكات تشارك أزواجهن في أمور الحكم ، وتصل إلى منصب نائب السلطنة ، وتتولى إدارة كافة الأمور والشؤون بمفردها(١) ، وقد تطرق ابن بطوطة في رحلته إلى أهمية المرأة عند المغول وعن الإقطاعات والأراضي التي تجبى لحسابها ، حيث قال: «وهم أي المغول إذا كتبوا أمرًا يقولون فيه عن أمر السلطان والخواتين(٢) ، وكان لكل خاتون الكثير من البلاد والجابي العظيمة(٣) ، كما كانت الخاتون تمنح راتبًا سنويًا كبيرًا لا يقل عن راتب بكلاري بك «أي أمير الأمراء» ، ونائب الخان ، ويزيد عن رواتب الوزير ، فإذا كان راتب الأول ثلاثمائة تومان ، وراتب الثاني مائة وخمسون تومانًا ، فإن راتب الخاتون كان مائتي تومانًا ، والتومان عشرة آلاف درهم ، وبلغ من علو شأن الخواتين أن مجمع القوريلتاي كان لا

* معيدة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة حلب - سورية.

ينعقد إلا بحضورهنَّ ، كما كن يتدخلنَّ في عزل بعض الخوانين ، ويساعدنَّ البعض الآخر في ارتقاء العرش ، وكُنَّ يتمتعنَّ بمظاهر الملوكية؛ فكان للخاتون الكبرى أي زوجة الخان المفضلة طبل يُدق عقب طبل الخان نفسه ، ثم تدق طبول سائر الخواتين ، ثم طبل الوزير وبقية الوزراء[٤] ، وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يُدلل على علو شأن المرأة ، وتمتعها بالاحترام والرفعة في البلاط المغولي ، الذي كان يساهم بقدر كبير على إعطائها كامل حقوقها.

- ***سرقويتي بيكي***

ومن النساء البارزات اللواتي كان لهنَّ دور كبير في المجتمع المغولي هي سرقويتي بيكي ، التي خلفت مجموعة من الأولاد الذين يعتبرون من أهم خانات المغول.

هي ابنة أخي أونك خان ، وزوجة تولوي بن جنكيز خان ، وكان لها من الأولاد أربعة بنين مونكو ، قوبيلاي ، هولاكو ، أريغ بوكا ، فأحسنت تربية الأولاد ، وكانت لبيبة مؤمنة تدين بدين النصرانية ، تعظم المطارنة والرهبان تقتبس صلواتهم وبركتهم وفي مثلها قال الشاعر:

فلو كان النساء كمثل هذه لفضلت النساء على الرجال[٥]

وكانت امرأة عاقلة كافية ، وقد فاقت خواتين عصرها في الرأي والتدبير والعفة والنزاهة والعصمة وقد اجتهدت اجتهادًا تامًا في تربية أولادها حتى علمتهم الآداب والفضائل[٦].

وكان لها دور كبير في إدارة أمور الدولة في فترة حكم أوكتاي ، ولايُذكر اسم أوكتاي إلا ويذكر معه اسم سورقيتي بيكي ، وكان أوكتاي خان قد خطبها لابنه كيوك ، ولكنها رفضت بحجة تربية أبناءها لأنها لو تزوجت أوكتاي كان الحكم سيكون من نصيب أسرة أوكتاي(٧) .

وقد لعبت هذه المرأة دورًا كبيرًا في تنصيب ابنها منكو ، وذلك عندما عملت هي وباتو(٨) على إيصال منكو للعرش ، وذلك عندما تعلل باتو ملك خوانين القبجاق بمرضه ولم يحضر إلى القوريلتاي لانتخاب كيوك(٩) ، فإن سرقويتي أوفدت أبنائها إلى باتو وقالت لهم إن باتو الأخ الأكبر وطاعته واجبة عليهم جميعًا ولا يجوز مخالفته(١٠) ، وبهذا مهدت سرقويتي الطريق لأبنائها من أجل تعيين ابنها منكو خلفًا لكيوك ، وذلك بالاتفاق مع باتو بينما لم تسفر خطة أغول غايمش عن شيء ، وذلك لأن أبناء أوكتاي وبتحريض من أوغول غايمش أرملة كيوك لم يحضروا القوريلتاي تعبيرًا عن عدم موافقتهم على هذا الاختيار ولذا أمر باتو كلاً من ابنه سرتاق وأخيه بركة بالذهاب إلى قراقورم(١١) ، على رأس قوة عسكرية وتنصيب مونكو بن تولي وقطع رأس المعارضين إذا استدعى الأمر ذلك(١٢).

وقد طلب باتو تتويج منكو رسميًا إلا أن ذلك لاقى رفضًا من بعض الأمراء بدعوى أن المنصب لابد أن يظل محصورًا في ذرية أوكتاي وكيوك ، وقد استمرت المفاوضات بين باتو ومنكو وسرقويتي من ناحية ، والمعارضين من ناحية أخرى لمدة عامين؛ وفي النهاية تمت مبايعة منكو من قبل أنصاره

رسميًا لمنصب الخان ، بتأييد من باتو في ذي الحجة سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٤٩م بالرغم من معارضة أغول غايمش وبعض المعارضين لابنها[١٣] ، وعندما جلس منكوقآن على العرش بانتخاب باتو ، وجميع ملوك وأعيان المملكة في ٩ربيع الآخر٦٤٩هـ/ ١٢٥١م قامت والدته باستقطاب الزعماء بالهدايا السخية والتحف واستمالت الخارجين عن الطاعة بالوعود الطيبة[١٤].

نلاحظ هنا الدور الكبير الذي لعبته هذه المرأة القوية والحكيمة في تتويج ابنها خانًا لعرش المغول وذلك يدل على الذكاء الذي تمتعت به كما يدل على حنكتها السياسية في تهيئة المؤيدين لابنها ومنهم باتو ، وأيضًا استطاعت أن تكسب بعض المعارضين إلى صف ابنها من خلال تقديم الهدايا للأمراء.

دور سرقويتي بيكي في معاملة المسلمين والمسيحيين

كان لوالدة منكو دور كبير في تربيته ، حيث كانت والدته مسيحية ، ورغم أنه لم يكن مسيحيًا كوالدته إلا أنه كان متسامحًا مع المسيحيين ، بالإضافة إلى ذلك كانت جميع الأديان تتمتع بحرية في بلاطه[١٥] ، وكانت تعد أكبر خواتين المغول؛ وأكثرهنَّ حكمة وكفاءة ولم يكن لها نظير في عصرها من حيث احترامها للياسا الجنكيزية ، وإدارة شؤون الحكم ، والجود ، وكانت موضع احترام أوكتاي بعد وفاة تولوي ، ومع أنها كانت مسيحية؛ إلا أنها لم تكن تبدي أي نوع من التعصب ، وكانت ترفق بالرعايا المسلمين في البلاد؛

فتكلفت بتكاليف بناء مدرسة إيرا ببخارى[١٦] ، وخصصت لها الأوقاف وعينت عليها أحد كبار علماء المسلمين[١٧].

وقد عامل منكو النصارى معاملة خاصة لم يظفر بمثلها غيرهم من اتباع الديانات الأخرى ، وذلك تكريمًا لوالدته ، وأسند تعليم ولده الأكبر بلتو إلى رجل نصراني ، وكان كبير وزرائه بلغاي نصرانيًا أيضًا[١٨] ، كما إنه أعطى الحرية الدينية للمسلمين ، وقد سعى لإحياء الشعائر الإسلامية؛ متأثرًا بوالدته التي سلكت سلوكًا حسنًا مع الرعايا المسلمين ، وخاصة الأئمة والمشايخ ، الذين أغدقت عليه الهدايا والهبات ، رغم كونها مسيحية[١٩] ، كما أنشأ منكو قاآن مدرسة تنفيذًا لرغبة والدته سرقويتي بيكي ، وقد بذل الأموال الكثيرة لبناء هذه المدرسة في بخارى ، وكلف شيخ الإسلام سيف الدين الباخرزي[٢٠] ، بالإشراف على هذه المدرسة ، وأن تشترى القرى وتصبح وقفًا عليها ، كما أجلس المدرسين وطلاب العلوم ، وكان يرسل صدقاته دائمًا إلى النواحي والأطراف ويخصها للمساكين والفقراء[٢١].

كما كان منكو يسمح بإقامة المناظرات الدينية ، وبلغت حرية المسلمين درجة إلى حد أنهم كانوا يتناظرون ويتحاجون عن أديانهم أحدهم مع الآخر في حضوره ، كما لقي المسلمون الحرية مبلغًا كان يخطب في بعض البلاد لخليفة بغداد ويدعى ضمن ذلك لدوام دولة منكو وفي عهد سرقويتي وابنها منكو زادت الحركة بين أقطار أوربا المسيحية ، وبلاد آسيا ، وبلاط المغول وكان المسيحيون في تلك الأيام منشغلين بالحروب الصليبية ، ضد

المسلمين في مصر والشام ، وأرادوا أن يقيموا علاقات ودية مع المغول ، الذين كانوا يعتبرونهم أعداء للإسلام فأرسلوا السفراء إلى بلاط الخان عدة مرات ، مستغلين سرقويتي والدته لأنها كانت ابنة أخ أونك خان زعيم قبيلة الكرايت المسيحية ، والذي كان المسيحيون يلقبونه بالملك يوحنا (٢٢) ، ويعتبر عهده من أخطر العهود ، ويعود السبب في ذلك أنه تم في عهده اتخاذ القرار بذهاب هولاكو أخي منكو قاآن بناءً على قراره لغزو العالم الإسلامي والقضاء على الإسماعيلية وإسقاط خلافة بغداد (٢٣).

***

الهوامش:

(١) شيرين بياني: زن در إيران عصر مغول، انتشارات دانشكاه تهران، ص١٥٩.

(٢) الخواتين: (جمع خاتون وهو لفظ تركي معناه السيدة، وهذا اللفظ يرد بجانب الاسم ويقوم مقام لقب السيدة، للإشارة إلى الجليلات من النساء خصوصًا أميرات الأسرة الحاكمة.(القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تعليق: محمد حسين شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، ج٦، ص٧٨، حسن الباشا: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٨م، ص٢٦٤- ٢٦٥).

(٣) رحلة ابن بطوطة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٤، ٢٠٠٧م، ص٢٤٣.

(٤) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص٢٤٦، رجب عبد الحليم: انتشار الإسلام بين المغول، دار النهضة العربية، بيروت، ص٧٠- ٧١.

(٥) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، تصحيح الأب أنطوان صالحاني اليسوعي، دار الرائد اللبناني، بيروت، ١٩٨٣م، ص٤٣٤.

(٦) رشيد الدين: التاريخ الغازاني من جامع التواريخ (تاريخ المغول)، تحقيق: سهيل زكار، دمشق ، ٢٠٠٥م ص٤٥٨

(٧) رشيد الدين: المصدر نفسه، ص٤٥٩، شيرين بياني: المرجع السابق، ص١٥٠- ١٥١.
(٨) باتو: هو الابن الثاني لجوجي بن جنكيز خان، وكان يسمى صاين وخان لعظمته وتمكنه، ولما توفي أولاد جنكيز خان الأربعة كان هو أكبر الأحفاد وكان الشهرزادكية يحترمونه احترامًا عظيمًا وكانوا إذا عملوا قوريلتايًا لايتجاوز أحد كلامه وحكمه(رشيد الدين الهمذاني: المصدر السابق، ص٣٨٦).
(٩) صبري أبو الخير سليم: قيام دولة مغول القبجاق في روسيا وسياستها الخارجية، رسالة دكتوراه الزقازيق، القاهرة، ١٩٩٢م، ص١١٤.
(١٠) رشيد الدين: التاريخ الغازاني، ص٤٢٧، صبري أبو الخير سليم: المرجع السابق، ص١١٤.
(١١) قراقورم: في أقاصي بلاد الترك، وهي كلمة تركية بمعنى الرمال السوداء، وتقع على نهر أورخون من مدن الصين المشهورة، كانت عاصمة الأتراك الكرايت قبل أن ينتصر عليهم جنكيز خان، ظلت بيوتها مبنية بالطين والقش حتى جددها أوكتاي.(القلقشندي: المصدر السابق، ص٤٧٨، صبري سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة في عصر سيطرة إيلخانات المغول في إيران، رسالة دكتوراة، جامعة القاهرة، ١٩٩٦م، ص٥١).
(١٢) صبري أبو الخير سليم: قيام دولة المغول القفجاق، ص١١٤.
(١٣) عباس إقبال: تاريخ المغول منذ حملة جنكيز خان حتى قيام الدولة التيمورية، ترجمة: عبدالوهاب علوب، المجمع الثقافي، أبوظبي ، ٢٠٠٠م ص١٧٥- ١٧٧.
(١٤) ابن العبري: تاريخ الزمان، ترجمة الأب اسحق أرملة، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦م، ص٢٩٦.
(١٥) برتولد شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، تر: خالد أسعد عيسى، ط١، دار حسان، دمشق ١٩٨٢م، ص٤٢، ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، تر: السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ص٥٠٩.
(١٦) بخارى: مدينة عظيمة مشهورة بما وراء النهر قديمة طيبة، من أجمل بلاد الإسلام، بينها وبين سمرقند سبعة أيام وسبعة وثلاثون فرسخًا افتتح بخارى سعيد بن عثمان بن عفان في زمن معاوية رضي الله عنه ثم خرج عنها يريد سمرقند فامتنع أهلها فلم تزل مغلقة حتى افتتحها

سلم بن زياد في أيام يزيد بن معاوية ثم انتقضت وامتنعت حتى صار إليها قتيبة بن مسلم الباهلي في أيام الوليد بن عبد الملك فافتتحها.

القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ج١، ص٢٠٩، الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق:إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٨م، ج١، ص٨٣).

(١٧) عباس إقبال: المرجع السابق، ص١٧٦- ١٧٧.

(١٨) بارتولد: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، نقله من الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، ط١، الكويت، ١٩٨١م، ص٦٨٥.

(١٩) فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، ص٢١١.

(٢٠) سيف الدين الباخرزي: سعيد بن المطهّر. الإمام القدوة المحدّث، سيف الدين أبو المعالي الباخرزي، شيخ زاهد عارف كبير القدر، إمام في السنّة والتصوّف. عُني بالحديث وسمعه وكتب الأجزاء ورحل وصحب الشيخ نجم الدين الكُبرَى، وسمع منه ومن غيره، وخرّج لنفسه أربعين حديثًا، وَعلَى يده أسلم السلطان بركه. وتوفيّ سنة تسع وخمسين وستّ مائة.(الصفدي: الوافي بالوفيات، دار صادر، بيروت، ١٩٨٢م، ج٥، ص٨٣، الرمزي: تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قازان وبلغار وملوك التتار، علق عليه ابراهيم شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣ م، ص٤٠٠- ٤٠٣).

(٢١) الجويني: تاريخ فاتح العالم جهانكشاي، ترجمة محمد التونجي، ط١، دار الملاح، دمشق، ١٩٨٥م. - ج٢، ص١٨٨، صبري سليم: المرجع السابق، ص٩١- ٩٢.

(٢٢) عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام، ترجمة محمد علاء الدين مضور، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٨٩م ص ٤١٩.

(٢٣) خواندمير: حبيب السير في أخبار أفراد البشر، جلد سوم از انتشارات كتابخانه خيام خيابان ناصر خسرو ١٣٣٣هـ. ش، مج٣، ج١، ص٥٧.

أعمال الحاسب الآلي والمونتاج
إيمان محمد حسن مصطفى